

اغتراب الشخصية عامل للهجرة غير الشرعية

مريم خير الدين غابري

أستاذة فلسفة

جامعة تونس

مقدمة :

مما لا شك فيه أن موضوع الهجرة غير الشرعية أخذ مكانا بارزا في اهتمامات الرأي العام المحلي والعالمي على حد سواء، وتكمن خطورة هذا الفعل كونه يعد ثقافة تدميرية للذات وللمجتمع، وتلك هي الحقيقة التي يستند عليها المشرع في كل الثقافات لإعداد القانون المجرم لهذا الفعل.

إن المشكلة في مجتمعات المغرب العربي على غرار المجتمعات الأخرى اتخذت بعدا مأساويا منذ انتشار ما يسمى بـ "الحرقان" في اللهجة التونسية و"الحرقة" في اللهجة الجزائرية، وهذا المفهوم حديث العهد بالثقافة في المنطقة المغاربية، وهو يعكس إلى حد بعيد أزمة الاغتراب التي تعاني منها الثقافة المغاربية في أبعادها المختلفة.

أولا : مفهومات الدراسة

أ- الشخصية :

يصعب تعريف الشخصية تعريفا جامعاً مانعاً، وفي عام 1937 قام "جوردن ألبورت" Gordon Allport، ضمن جهد توضيحي بإحصاء خمسين تعريفا للشخصية، وخلص إلى القول بأن "الشخصية هي تنظيم دينامي لوضعيات نفسية فيزيائية تحقق للفرد تكيفية مع الوسط الاجتماعي" ويخلص من هذا التعريف أن الشخصية ليست كيانا ماديا فحسب، بل هي بناء متناسق من التصورات والأحاسيس الروحية والمشاعر والاتجاهات النفسية⁽¹⁾.

ويطرح "أحمد زكي" تعريفا للشخصية بأنها : "نظام متكامل من الخصائص الجسمية والوجدانية والإدراكية التي تبني على أساسها هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تميزا ظاهرا"⁽²⁾.

ويعرفها "جان ديبو" Jean Dubois بأنها : "مجموعة العناصر التي تشكل السلوك وردود أفعال للأشخاص إزاء المواقف الحياتية"⁽³⁾.

فالشخصية هي بناء متكامل من العناصر الروحية والمادية التي تجعل شخص ما ينفرد بخصائص نفسية، ثقافية، بيولوجية، فكرية، وعقلية تميزه عما سواه وتجعله يشعر بالاستقلالية وبالانتماء إلى الثقافة التي عاش فيها وكل نظمها.

ب- الاغتراب :

الاغتراب مفهوم يضرب بجذوره في أعماق الجذور الإنساني، لذا يحتل المكانة الخاصة في الفلسفة القديمة والمعاصرة.

ويمكن فهم الاغتراب في فلسفة "ديكارت" في عدة أبعاد ⁽⁴⁾ :

- الاغتراب الميتافيزيقي حيث اغتراب الأنا عن الذات.
- الاغتراب الأنطولوجي ويفيد استرداد الحياة إلى آلية الأرواح الحيوانية.
- الاغتراب الوجودي، حيث تعيش الذات تجربة الانفعال في نطاق "الأنا أفكر" الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود".

والاغتراب في معناه العام يعني الانسلاخ عن المجتمع، وقد استخدمه الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" بمعنى تحول الإنسان إلى عبد للمؤسسات الاجتماعية والأنماط السلوكية التي أنتجها، وذلك في سياق تطور التاريخ الإنساني.

ويتضمن مفهوم الاغتراب معاني عديدة منها : اللاوعي، اللاأنتماء، الهامشية، السلبية والبيعية، ويحدد "مولفان سومان" خمسة أبعاد أساسية لمفهوم الاغتراب هي : الحرمان من السلطة، غياب معنى الحياة، غياب المعايير، غياب القيم وإحساس بالغربة عن الذات ⁽⁵⁾.

ويبدو أن التصور الذي يقترحه الفيلسوف "شاخ" يعتبر أكثر التصورات قبولاً، وهو يرى أن هناك خمسة أبعاد أساسية للاغتراب هي : انعدام القوة، فقدان المعنى، فقدان المعايير، العزلة الاجتماعية، غربة الذات، ولهذه الأبعاد الخمسة انعكاسات وآثار على الشخصية الإنسانية في جوانبها الفردية والاجتماعية ⁽⁶⁾. ومن هذا المنطلق فإن مفهوم الاغتراب في الشخصية يتحدد بالأبعاد التالية ⁽⁷⁾ :

- حالات عدم التكيف النفسي التي تعانيها الشخصية : عدم الثقة بالنفس، القلق المستمر، الإرهاب الاجتماعي، المخاوف المرضية.
- غياب الإحساس بالتكامل والتماسك الداخلي للشخصية.
- حالات ديمومة العقد النفسية التي تعترى الشخصية : عقدة أوديب، عقدة الخصاء عقدة النقص، عقدة الاضطهاد.

- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية : الشعور بالانتماء، الشعور بالجهد المركزي، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالمكانة، غياب الإحساس بالأمن.

هذا وقد تعددت الاتجاهات النظرية في تعاملها مع مفهوم الاغتراب :

فالنظرية الماركسية تعرضت للمفهوم في ضوء الصراع بين الطبقات، وتقسيم العمل وتناولت النظرية البنائية الوظيفية المفهوم في ضوء الصراع القيمي وتعدد العلاقات الاجتماعية وسيادة البيروقراطية، والاعتماد على الآلة، أما نظرية العلاقات الإنسانية فقد تناولت المفهوم من المنظور الاجتماعي النفسي، حيث ركزت كل الأبعاد النفسية لاغتراب الفرد، ومن مظاهرها العزلة عن الآخرين المجتمع ككل⁽⁸⁾.

وإذا كان البحث في الاغتراب يفرض ضرورة استثمار نتائج المعرفة العلمية في تنمية المجتمع سعياً لتحقيق المساواة الاجتماعية، فإن الدراسة هنا يقصد بها رصد وتحليل العوامل التي تؤدي إلى الاغتراب المفضي إلى ممارسة الهجرة غير الشرعية، ولما كانت هذه المسألة تتعدى حدود الباحث الواحد والبحث الواحد، كونها تتسم بطابع الشمول فإن هذه المقالة تكتفي بالإشارة لأبرز العوامل المرتبطة بالثقافة المعاصرة.

ج- الهجرة غير الشرعية :

يصعب تأكيد وجود تعريف واضح ومحدد للهجرة غير الشرعية، ويمكن الإشارة إلى :
تعريف "تابونز" الذي يشير إلى الحالات الثمانية المفسرة للهجرة غير الشرعية هي⁽⁹⁾ :

- 1- الدخول الشرعي والإقامة الشرعية لكن العمل غير الشرعي.
- 2- الدخول الشرعي ولكن الإقامة غير شرعية والعمل غير شرعي.
- 3- الدخول الشرعي ولا يوجد عمل ولكن الإقامة غير شرعية.
- 4- الدخول غير شرعي والإقامة مشروعة ولكن العمل غير شرعي.
- 5- الدخول غير شرعي والإقامة غير شرعية والعمل غير شرعي.
- 6- الدخول غير شرعي والإقامة غير شرعية ولا يوجد عمل.
- 7- الدخول الشرعي والإقامة الشرعية ولكن بلا عمل.
- 8- الدخول غير الشرعي والإقامة مشروعة ولكن بلا عمل.

وتأخذ الهجرة غير الشرعية أنماطا متعددة، يمكن الإشارة إلى :

- الدخول غير القانوني إلى دولة أجنبية دون وثائق سفر أو ترخيص مسبق، ويتم الدخول عبر الحدود سرياً أي عبر منافذ نقاط التهريب بكل أشكاله.
- الدخول إلى دولة أجنبية باستخدام وثائق مزورة.
- الخروج عن الوضع القانوني، ويخض المهاجرين الذين استفادوا من وضع قانوني يسمح لهم بالدخول إلى دولة أجنبية، ولكن الوضع تقادم وأصبحوا في وضعية الإقامة غير الشرعية.

ويستخدم "Frrant" عدة مصطلحات للإشارة إلى الهجرة غير الشرعية ومنها : الهجرة غير النظامية، الهجرة غير الشرعية، الهجرة غير الموثقة، الهجرة غير المصرح بها رسمياً⁽¹⁰⁾، ويحدد البعض مفهوم الهجرة غير الشرعية من وجهة نظر الدول المتلقية والدول المرسلة : فمن وجهة نظر الدول المتلقية تمثل الهجرة غير الشرعية دخولا غير شرعي، والإقامة أو العمل في دول معينة غير شرعي.

أما من حيث الدول المرسلة فإن غير الشرعية ينظر إليها من حيث الحالات التي من خلالها يعبر الشخص الحدود الدولية بدون جواز سفر صالح أو وثيقة سفر أو لم يملأ المتطلبات الإدارية لمغادرة الدولة. ويوجد اتجاه يقيد استخدام مصطلح "الهجرة غير الشرعية" على حالات تهريب المهاجرين وتشير دراسة إلى أنه في ظل ظروف الأزمات الاقتصادية المتلاحقة تنشط حركة تهريب الأشخاص الذين يبحثون عن فرص عمل لتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتقوم بالتهريب البشري عصابات الثراء غير المشروع والفاش التي تحسن الاصطياد في الماء العكر بالأزمات الاقتصادية والحروب والكوارث التي تصيب المجتمعات الفقيرة وبعض الدول النامية⁽¹¹⁾. وتشير دراسة "تميم" إلى أن أرباح تجارة تهريب البشر إلى أوروبا تقدر بنحو خمسة مليارات دولار سنوياً، يذهب نصفها تقريباً لصالح مافيا السلاح والإرهاب⁽¹²⁾.

ثانياً : من الاغتراب إلى سلوك للهجرة غير الشرعية حالة المغرب العربي :

وهنا يمكن طرح سؤال جوهري : لماذا تعاني الشخصية المغاربية من الاغتراب المفضي إلى كل أشكال الانحراف الجنائي ؟ ها يعاني الإنسان المغاربي من فكر مشوش، ممزق ومن ثقافة مشوهة ؟.

عاشت الشخصية المغاربية بصورة عامة إكراهات شروط الحياة في الجوانب الثقافية الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والتاريخية : فقر، أنظمة سياسة مستبدة، استعمار بغيض مؤسسات مالية عالمية مهيمنة، جماعات متطرفة، العنف المسلح وكل أشكال القهر والموت والخراب التي ظهرت وتظهر في ظل الثقافة المعاصرة تلك هي الحقيقة التي يحياها الإنسان في الوطن العربي عامة.

إن عوامل الشخصية المغاربية وأسبابها متعددة، ويمكن القول أن هذه الشخصية تعيش حالة أزمة دائمة وحقيقية، وهو ما أدى إلى وجود شخصيات إنسانية غير واثقة من نفسها، توجه عدوانها نحو ذاتها، وما الهجرة غير الشرعية إلا مظهرها من المظاهر المأساوية التي تقتل المشاعر الإنسانية النبيلة. وعلى هذا فإن

سلوك الهجرة غير الشرعية الذي يتجه نحو الارتقاء في المجهول دون أي إحساس بالذنب أو العواقب أو الضمير يصدر عن أشخاص فقدوا روح الانتماء للثقافة الأصلية وحبهم لها، وهم بذلك يفجرون مكبوتات القهر والمعانات والألم الصاعق بالعدوان على الذات وتدميرها بعيدا عن مراقبة المجتمع.

لقد شهدت دول المغرب العربي، منذ العقد الأخير من نهاية القرن العشرين تزايدا في أعداد المهاجرين الذين يحاولون عبور البحر الأبيض المتوسط، ما عرض جلهم إلى أخطار جمة ولا يمر الشهر دون سماع أخبار بالفاجعات التي تقع عن غرق قوارب، وجثث تلقيها المياه على الشواطئ، وأخبار عن أشخاص نجوا من ويلات البحر ليقعوا في قبضة جماعات متطرفة فرضت عليهما القيام بمهمات "قدرة" ... إذ يلاحظ أن بعض المهاجرين الذين يعبرون منطقة البحر الأبيض المتوسط، هم ضحايا الاتجار بالبشر، وبعضهم من النساء والأطفال الذين يقعون ضحايا للاستغلال وإساءة المعاملة مدى الحياة لمن وصلوا إلى البر بأمان.

وتعد دول المغرب العربي من المعابر الرئيسية للهجرة غير الشرعية إلى معظم دول أوروبا الغربية. وبناء على تقارير مجلس الوحدة الاقتصادية التابع لجامعة الدولة العربية، فإن نسبة البطالة تتزايد سنويا في الدول العربية بمعدل 3%، حيث تبلغ 13.7% في الجزائر، 15% في تونس 12% في المغرب، وقد أشار تقرير التنمية البشرية للدول العربية لعام 2014، إلى أن عدد المغاربة الذين يعيشون تحت خط الفقر يبلغ 6 ملايين شخص يمثلون نحو 19% من إجمالي للسكان وقد أصبح من الأولويات القصوى لدول المغرب العربي المشاركة في الاستراتيجيات الرامية إلى حصد الهجرة غير الشرعية ومكافحتها، فقد وضعت المملكة المغربية في عام 2003 قانونا جديدا ينص على عقوبة السجن، ضد كل من يتورط في فعل الهجرة غير الشرعية، واستفادت المغرب من مساعدات مالية من الاتحاد الأوروبي، للسيطرة على الظاهرة، وتعزيز أمن حدودها، واتخاذ إجراءات صارمة ضد تهريب البشر، وتحسين الإطار القضائي.

وسارعت الجزائر كذلك إلى إرساء معالم كل الأطر القانونية والتنموية التي تعالج الظاهرة وتصدها : تشريع جزائي، حملات توعية والمساجد والمؤسسات التعليمية، إنشاء جمعيات لمرافقة الشباب، قروض لإنشاء مؤسسات صغيرة...

وأقر المشرع التونسي قانونا خاصا بجوازات السفر ويهدف إلى محاربة ظاهرة الهجرة غير الشرعية : ويحدد هذا القانون فئتين من الأشخاص المتورطين في جرائم الهجرة غير الشرعية :

- الفاعلين الأصليين الذين يمارسون الأفعال المشكلة لأركان الجريمة : الهجرة غير الشرعية، التهريب...

- المشاركين، وهو الأشخاص الذين يسهمون في وقوع الجريمة. يعاقب المشرع التونسي الأشخاص الذين تورطوا في جريمة الهجرة غير الشرعية بالسجن لمدة تتراوح ما بين 3 أشهر و20 عام،

وبغرامات مالية تصل إلى نحو 100 ألف دينار تونسي، مع وضع المجرمين قيد المراقبة الإدارية أو منهم من الإقامة في أماكن محددة إذا ذلك يساعدهم في مباشرة الجريمة.

وفي المقابل، يستفيد الأشخاص الذين انخرطوا في تنظيم عمليات الهجرة غير الشرعية من البراءة، بشرط قيام هؤلاء الأشخاص بإعلام للسلطة بوجود "المخطط الإجرامي" أو مدها بمعلومات تسهم في إحباط المخطط والقبض على أصحابه.

هذا وترفض جل المنظمات الحقوقية والمجتمع المدني بدول المغرب العربي الحلول الأمنية لمحاربة الظاهرة، وتطالب باعتماد رؤية تنموية متكاملة الأبعاد، تحد من العلاقات الاجتماعية المتفككة، الفقر، الاستبعاد، التسلط المؤسسات، العولمة المتوحشة، وهي المظاهر التي تعد الأسباب الحقيقية للهجرة غير الشرعية.

ثالثا : مظاهر الاغتراب الاجتماعي في شخصية المهاجر غير الشرعي :

لا تختلف سمات الشخصية في المجتمعات المغاربية عن النموذج السائد في المنطقة العربية حيث تظهر المعاناة من عدة إكراهات نفسية واجتماعية وثقافية وتاريخية، وهي الاكراهات التي تمكن في أصل اغتراب الفرد ووقوعه في قبضته للهجرة غير الشرعية، وقد رصد "فوائد زكرياء" سمات قائمة التصقت بالشخصية العربية، قوامها : الخداع، النفاق، اللامسؤولية، الخضوع الاستسلام، الخوف، العيش في الأحلام، الخجل، القلق⁽¹³⁾.

انطلاقا من هذه المعطيات، تمت مراجعة مجموعة من الدراسات التي أجريت في منطقة المغرب العربي حول دواعي الهجرة غير الشرعية، ويظهر أن المهاجرين غير الشرعيين من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 22 سنة و35 سنة، يعانون في ظل الثقافة المعاصرة أزمة متعددة الأبعاد (اجتماعية، ثقافية، سياسية، اقتصادية، دينية...) ولعل أبرز خلفيات مظاهرها :

أ- التسلط التربوي :

تفيد الدراسات، أن للطفل العربي، يعيش في فضاء أسري يجسد إلى حد كبير التطرف واعتباط السلطة الأبوية⁽¹⁴⁾، ويصف "هشام شرابي" في كتابه "مقدمات لدراسة المجتمع العربي" أشكال العنف والقهر التي يعاني منها الطفل العربي، ويشير إلى أن وسائل التنشئة الاجتماعية في الثقافة العربية تتمثل على وجه الخصوص في العقاب الجسدي والاستهزاء والقمع والتشهير، وكل هذه الممارسات تؤدي إلى عقد العار والشعور بالنقص والدونية⁽¹⁵⁾، وفي هذا الصدد يقول "خلدون نقيب" أن الأزمة الثقافية في الوطن العربي تكمن في الشكل التربوي : أن العنف ينتقل إلى المؤسسات التعليمية التي تعيد إنتاج عناصره، والنظم

التربوية العربية تسعى إلى فرض الانصياع بهدف المحافظة على الوضع القائم بدلا من تعليم سلوك الحرية في اكتساب المعرفة والعلم⁽¹⁶⁾، لقد تبين من نتائج الدراسات التي أجريت حول أبعاد الهجرة غير الشرعي في المجتمع الجزائري، أن المهاجرين غير الشرعيين مورست ضدهم أشكالاً متعددة من القهر النفسي والجسدي⁽¹⁷⁾.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن ممارسة سلوك الهجرة غير الشرعية دون أي إحساس بتبعات هذا السلوك غير المحمود العواقب، يصدر عن أشخاص فقدوا الشعور بالانتماء الأسري وهم بذلك يفجرون مكبوتات التسلط التربوي.

لقد بينت الأبحاث الأنثروبولوجيا، حول التنشئة الاجتماعية عند بعض قبائل الميلانيزيا في جنوب شرق آسيا، أهمية أساليب التنشئة ومدى تأثيرها في بناء شخصيات عدوانية أو متسامحة⁽¹⁸⁾ وتبين نتائج الدراسات التي أجرتها الباحثة الأنثروبولوجيا الأمريكية (مارغيت ميد) في بعض القبائل في غينيا الجديدة، الاختلاف الواضح بين سمات الشخصية القاعدية بالقبائل المجاورة : ففي قبيلة "دأرابش" التي يعرف أهلها بالوداعة والمسالمة والرفقة، يتميز الرجال والنساء بسمات للرفقة والنعمومة والوداعة والطيبة، وهذا على خلاف الحال في قبيلة "موند وغومور" التي يعرف رجالها ونسائها الشدة والعدوانية وقساوة القلب.

وأرجعت "مارغيت ميد" الاختلاف الواضح بين سمات الشخصية القاعدية في القبائل المتجاورة إلى التسلط التربوي : ففي قبيلة "الأرابش" ينظر للأهالي إلى الطفل على أنه كله خير يستحق كل أشكال الرعاية والحب والحرية... أما الطفل في قبيلة "الموند وغومور" فيربى على قيم العدوانية والتسلط حيث يتم فطامه فجأة ولا يسمح له بالرضاعة إلا لفترة قصيرة، والأمهات يرضعن أطفالهن وقوفا⁽¹⁹⁾، إن حياة الأطفال في قبيلة "الموند وغومور" مشحونة بالعنف والقهر والعناء، ولحظات الرضاعة هي لحظات بؤس وشقاء وفي مثل هذه الممارسات تكمن الشخصية المثقلة بالاستلاب والعقد النفسية والمكونة للتطرف والعدوان ضد الذات وضد المجتمع وما الهجرة غير الشرعية الأشكال من أشكال هذا الوضع للمتماز.

ب- العلاقات الاجتماعية الجافة :

إن المجتمعات المغاربية أضحت ممزقة بين عدة اتجاهات وما نتج عن ذلك من تشتت في الهوية الاجتماعية والثقافية، ولذلك تظهر العلاقات الاجتماعية متفككة بسبب الجفاء والازدواجية في التعامل وفقدان الثقة والشعور بالخوف وغيرها من أنساق المخاوف والمخاطر التي تحاصر الإنسان المغاربي خاصة أمام :

- تنامي الظاهرة الإجرامية العابرة للحدود بكل أشكالها.

- اندثار القيم العربية مثل صلة الرحم، المشاركة في المناسبات الدينية والوطنية، التضامن السخي... إلخ.

- تنامي الشعور بالقلق والخوف من المستقبل من كثرة الفتن المتعددة الأبعاد.

- الشرور والأنماط الثقافية المستجدة التي تفرضها العولمة المتوحشة وغيرها من الإكراهات الدخيلة على منظومة القيم والتراث المغربي العريق.

وبالنتيجة يمكن القول أن أسلوب العلاقات الاجتماعية المشوهة والمبتورة توجد في أصل اغتراب شخصية المهاجر غير الشرعي إن الإنسان في ظل الثقافة المعاصرة أصبح منفصلا انفصالا حادا، عن الطبيعة وعن المجتمع وحتى عن نفسه وأفعاله، وبالتالي أصبح مغتربا، غير قادر على التفكير السليم والعمل الجاد⁽²⁰⁾، وهذا ما يفسر وقوع هؤلاء الشباب في براثن الهجرة غير الشرعية.

ج- المشكلات المجتمعية المستعصية :

المتتبع للحياة اليومية في المجتمعات العربية، يلاحظ أن المواطن أصبح محاصرا بنسق من المخاوف والاضطرابات الاجتماعية المختلفة... وفي أصل كل خوف تكمن المخاطر والمشاعر المكبوتة، التي تمنع التواصل والتفاعل الاجتماعيين على جميع المستويات : في الحي، في أماكن العمل، وحتى في دور العبادة. هذه التراكمات أوقعت المجتمعات العربية في مشكلات بنائية هدامة، متنوعة ومتعددة في مضامينها وأبعادها الثقافية، ولعل في طليعتها الانفعالات الشخصية المصحوبة بالعنف والسلوك البغيض، وما السلوك البغيض الموجه من شخص ضد شخص آخر إلا تعبير ظاهرا عن الشحنة والعداوة التي نشأت بين أفراد المجتمع الواحد، أن الفوضى والعشوائية ممارسات بارزة في الحياة اليومية بالمجتمعات العربية، وهذه الحالة كافية لتشحن الشخصية بالضعف والسلبية وغير ذلك من السمات التي تؤدي إلى الاغتراب المفنى للهجرة غير الشرعية.

ج- الاستبعاد الاجتماعي :

يصف "ماكس فيبر" الاستبعاد الاجتماعي بمظهر من مظاهر الانغلاق الاجتماعي والذي يفيد بأنه سلوك تمارسه جماعة معينة بهدف تأمين وضع خاص بها على حساب جماعة أو جماعات أخرى، ويظهر ذلك جليا من خلال عمليات الهيمنة والسيطرة والإخضاع...

وبالملاحظة أن المصطلح ظهر حديثا واستعمل في فرنسا للإشارة إلى الأشخاص الذين يتم استبعادهم من قبل الدولة، وفي أمريكا يختص مصطلح "الاستبعاد الاجتماعي" بجماعات "Gueto" وهم يمثلون الطبقات الدنيا المهمشة والأقليات اللاتينية التي تعيش في الأحياء الهامشية، أما في بريطانيا فإن المفهوم يشير إلى أربعة عوامل هي : عدم التمكن من استهلاك السلع والخدمات، عدم وجود فرص فعلية للمساهمة

في أنشطة ذات قيمة اقتصادية واجتماعية نقص المشاركة في صنع القرار، ضعف التفاعل الاجتماعي مع الثقافة المحلية.

ويبدو أن المجتمعات العربية تعاني منذ عقود طويلة من أشكال متعددة للاستبعاد الاجتماعي، وإن كانت طبيعة هذا الاستبعاد وأبعاده تختلف من منطقة عربية إلى أخرى باختلاف أبعاد الظاهرة ومتغيراتها : فالاستبعاد من المشاركة الشعبية في إدارة الشأن العام والخوف من الآخر ورفضه، وتفسخ علاقات السلطة، واندثار قيم الحكم الرشيد، وخضوع الممارسات السياسية لتنازع أصحاب سلطة المال، والتخلي عن القيم الباعثة للأمل والحاجة عن الأمن والسلم والتنمية والتضامن الاجتماعي... مظاهر تدل هلى أن الثقافة العربية تعاني أزمة عميقة⁽²¹⁾.

ففي دراسته حول "الشخصية العربية بين صور الذات ومفهوم الآخر " يشير "السيد يسين" إلى أن جسامه الصدمة التي حلت بالثقافة العربية ترجع إلى عوامل عديدة منها :

- تضخيم صورة الذات نتيجة الأوهام التي زرعت في أذهان الجماهير العربية.
- السياسات الدعائية والتي كان وراءها طبقة مثقفة من العرب تفتقر إلى بعد النظر.
- خيبة الأمل الجسيمة التي أصابت الجماهير العربية بسبب فشل السلطة الحاكمة ومنظمات جماهيرية مزيفة مع إقصاء المشاركة الشعبية المنظمة وقهر أصوات الجماهير في ظل نظم سياسة هشة رفعت شعار الليبرالية والتعددية السياسية الشكلية⁽²²⁾.

ويشخص "برهان غليون" المأزق العربي بتركيزه على الأسباب الداخلية للأزمة الثقافية العربية ومنها⁽²³⁾ :

- الانتشار السوقي للممارسات التي تكرس الطائفية والتمييز من أجل إعادة توزيع عناصر الثروة والمواقع الاجتماعية والسياسية الحساسة.
- زوال العام وصعود الخاص إلى مقدمة المسرح الاجتماعي.

أما "هشام شرابي" فإنه يربط أزمة الثقافة العربية بالتخلف الذي يعانيه المجتمع العربي، وأصل هذا التخلف "الأبوية المستحدثة" ومن مظاهرها : التراجعات المستمرة، الانكسارات المتكررة، التناقضات والصراعات الداخلية، الحلم الزائد، نظام سياسي يتسع لأصحاب الثراء الفاحش وذوي النفوذ والسلطة وبالمقابل يهمل الآخر ويدفعه نحو الاغتراب والاستبعاد الاجتماعيين⁽²⁴⁾.

هـ - مآسي العولمة :

الواقع أن المجتمعات العربية انخرطت في التوسع العالمي للرأسمالية دون أن تعمل حسابا كبيرا لمدى جاهزيتها لهذه المغامرة، يذكر "جوزيف ستيفليتز" أنه كان شاهدا على معظم الأحداث الاقتصادية في العقد الأخير من القرن العشرين، ورأى باستمرار صانعي السياسات يلجئون إلى النماذج الاقتصادية التي تخدم أهداف "أمريكا" واكتشف لدى مؤسسات العولمة الكبرى، رغبة مدمرة في السرية⁽²⁵⁾.
إن الفلسفة التي تركز عليها أمريكا التعميم سياسات حققت نتائج كارثية على الدول العربية تجسدت على وجه الخصوص في :

- ارتفاع نسبة البطالة في المجتمعات العربية.
- انخفاض عوائد العمل وتفكك المؤسسات الاقتصادية المحلية.
- الانحراف عن مسار التنمية المستدامة والحكم الرشيد.
- التطرف في ممارسة الحرية والديمقراطية والمساواة والفاعلية الاقتصادية.
- بروز الثراء الفاحش الذي يخدم كل أشكال الجريمة المنظمة : طبقة واحدة تهيمن على كل المشروعات - طبقة بورجوازية فوق العادة تفرض نفسها على المجتمع.

خلاصة :

حاولت في الصفحات السابقة تبيان أثر الاغتراب في الهجرة غير الشرعية مع الحديث عن العوامل البارزة في مجتمعات المغرب العربي...

إذن ما المطلوب لتجاوز أزمة الاغتراب المفضي إلى الهجرة غير الشرعية ؟

أعتقد أن الحل يكمن في :

- ردم الهوة بين التنظير والممارسة على جميع المستويات.
- الانخراط في عالم اليوم، عالم بناء الحضارة والثقافة الإنسانية المشتركة والعلم والمعرفة الإبداعية.
- ترشيد للخطاب (الاجتماعي، السياسي، الثقافي، الأمني...) في المجتمع وإضفاء البعد الإنساني في السياسات المنتهجة مع إحداث قطيعة مع الذات المفرطة في كل أبعادها وعلى جميع المستويات.
- بناء الاقتدار المعرفي وإرساء دعائمه : ثقافة الإنجاز والإبداع، الصحة النفسية، الانتماء وحصانة الهوية والشخصية المغاربية، الحصانة القيمية والكفاءة في التواصل والحوار الاجتماعيين.

وفي هذا الإطار لابد من تجديد الاهتمام المشترك بين الباحثين في دول المغرب العربي، والمؤسسات البحثية، والتوجه بإصرار قوي نحو المستقبل بالبحث في كل الأفعال غير السوية التي تنخر جسد الأمة في هذه المجتمعات والبحث عن علاجها من خلال الاقتدار المعرفي.

إن ظروف الحياة في ظل الثقافة المعاصرة غير مسبقة في شدتها ووطأتها، فالفساد مستشري وأسياد الجريمة منتشرون، والاستسلام لهذا الوضع ينذر بمزيد من الخراب والدمار للثقافة المغاربية المشتركة ومزيداً من التضحيات والضحايا الأبرياء، فضلاً عن المساس بالعلاقات المشتركة بين شعوب المنطقة ومن تم النيل من مقومات الانتماء والمصير المشترك...

الإحالات والهوامش :

- ¹ - على وطفة " المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، بحث في إشكالية القمع التربوي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، المجلد 27، العدد الثاني، 1998، ص 241 - 280.
- ² - أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، ص 211.
- ³ - jeu Dubois : Dicrionnaire francais contemporain : lorouse, Paris, 1989, P 3.
- ⁴ - محمد خضر عبد المختار : الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص 23 - 24.
- ⁵ - madelaine Grawitz : lexique des dcienes sociales, dalloz, paris, P 12.
- ⁶ - شاخت ريتشارد : الاغتراب ترجمة كامل يوسف حسني، القاهرة، دار شرقيات، 1995، ص 12.
- ⁷ - علي وطفة : المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مرجع سابق، ص 247 - 248.
- ⁸ - خالد أحمد الشلال : الاغتراب الأسري وأثره في تنمية أفراد الأسرة الكويتية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت العدد 28، 2007، ص 19.
- ⁹ - محمد سعيد عبد المجيد، وجدي شفيق عبد اللطيف : العولمة والهجرة غير الشرعية في المجتمع الريفي - دراسة ميدانية، الكويت حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 32، 2011، ص 20.
- ¹⁰ - محمد سعيد عبد المرجع : مرجع سابق، ص 21 - 22.
- ¹¹ - عمر معن خليل : الآثار الاجتماعية لظاهرة تهريب المهاجرين غير الشرعيين، الملتقى الدولي حول : "أثر تهريب المهاجرين غير الشرعيين" قسم البرامج التدريبية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 2004، ص 5.
- ¹² - عثمان الحسن، ياسر عوض : الهجرة غير المشروعة والجريمة، الرياض جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2008، ص 20.
- ¹³ - على وطفة : مرجع سابق، ص 253.
- ¹⁴ - مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الأنماء العربي، ط 9، 1989، ص 82.
- ¹⁵ - هشام شرابي : مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، دار الطليعة، ط 4، 1991، ص 31 - 83.
- ¹⁶ - خلدون حسن النقيب : المشكل التربوي والثورة الصامتة، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، المستقبل العربي، عدد 174، 1993، ص 67 - 86.
- ¹⁷ - محمد رمضان، أبعاد الهجرة غير الشرعية في المجتمع الجزائري، مشروع بحث في إطار المخطط الوطني للبحث، 2013 - 2014، ص 176.
- ¹⁸ - على وطفة، مرجع سابق، ص 251 - 253.
- ¹⁹ - على وطفة : مرجع سابق، ص 255.

- ⁻²⁰ محمد خضر عبد المختار : الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، 1999 ص 11.
- ⁻²¹ للتوسع يرجع إلى : السيد يسين : الشخصية العربية بين صور الذات ومفهوم الآخر، بيروت، دار التنوير، ط 3، 1983.
- ⁻²² للتوسع يرجع إلى : السيد يسني : الخريطة المعرفية للمجتمع العالمي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2008، ص 16- 18.
- ⁻²³ برهان غليون : اغتيال العقل بين السلفية والتبعية، دار التنوير، 1985، ص 6- 9.
- ⁻²⁴ هشام شرابي : النظام الأبوي واشكاليته خلف المجتمع العربي، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 4، ب ت، ص 22- 73.
- ⁻²⁵ للتوسع ينظر : جوزيف إ. ستيعليتز : خيبات العوالة، ترجمة ميشال كرم، بيروت، دار الغارابي، ط 1، 2003.